أزمة اللّسانيات في النّقد العربي، ملابسات النّشأة وخصوصيّات التّلقي

The Linguistic Crisis in Arab Criticism, The Problems of Emergence and the Features of Recepion

د. ريمة خلدون
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة
كلية الآداب واللغات، مخبر الشعرية العربية
dr.khaldoune@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/07/07	تاريخ القبول: 2020/08/02	تاريخ النشر: 2020/09/20

الملخص:
يلقى البحث اللساني اهتماما في جميع العلوم الإنسانية، وعلى الرغم من التطور الحاصل في هذا المجال في الثقافة النقدية الغربية، إلا أن الباحثين في اللسانيات العربية يقولون بوجود أزمة حقيقية في البحث اللساني العربي، حيث تتعدد صور هذه الأزمة بين المنهج والمصطلح والتلقي وغيرها من الإشكالات.
حيث سنتطرق في هذا البحث إلى ذكر بعض هذه الأزمات المرتبطة أساسا بنشأة اللسانيات في الثقافة النقدية العربية وملابسات تلقيها.
الكلمات المفتاحية: البحث اللّساني، أزمة، اللّسانيات العربية، النّقد العربي، التّلقي.

Abstract:
Linguistic research receives attention in all human sciences, and despite the development taking place in this field in Western critical culture, researchers in Arab linguistics say that there is a real crisis in Arab linguistic research, in which this crisis takes different forms between the method, term, reception, and other queries.
We will mention in this research some of these crises related mainly to the foundation of linguistics in Arab critical culture and the problems of receiving it.
Keywords: Linguistics research, crisis, Arab linguistics, Arab criticism, reception.

تمهيد:

ظهرت اللسانيات كعلم واضح المعالم مع محاضرات "فردينان دي سوسير" حيث اعتبر الدرس اللساني كمنهج في التعامل مع الظواهر اللغوية، وتم نقل هذا العلم الجديد إلى الثقافة النقدية العربية أين عرف أزمة وتخلفا في جميع العلوم «يلاحظ باستغراب وحيرة تخلّف ركب الفكر العربي في حلبة علوم اللسان»[1]، وهذه الأزمة اقترنت بملابسات نشأته وبخصوصيات تلقيه، ويظهر ذلك من خلال موقعنا في المشهد اللساني عموما، والذي يعاني التبعية، وقلة الدراسات التنظيرية باعتباره علما حديثا.

وإذا حاولنا تحديد ماهية الأزمة، فإن هذا يتطلب وجود واقع أو نموذج مألوف، بالمقابل يوجد نموذج قد خرج عن هذا المألوف، وهنا يكون الوضع قد عرف تأزما، « إذن تستدعي حالة التّأزم هذه، ضرورة، مرحلة انتقال من النموذج المأزوم إلى نموذج جديد، يكون منتجا لتقليد علمي جديد، بمعنى أن النموذج الجديد المقترح يؤول بعد نجاحه في التغلب على الأزمة، وبعد نسبة من الاستقرار والتجريب، إلى علم عادي»[2]، وهو ما يروم إليه هذا البحث من خلال جعل اللسانيات نموذجا مألوفا في الثقافة النقدية العربية، وهذا بعد تجاوز الأزمة التي يمر بها.

1ـ ملابسات النشأة:

لقد استطاع " دي سوسير" خلق المدرسة اللسانية الأولى التي عرفت تفريعات فيما بعد، كما كان درسه اللساني النواة الأولى للنقد الأدبي الحديث، وبهذا يكون قد أحدث قطيعة إبستمولوجية بما سبقه في دراسة علم اللغة.

وإذا تحدثنا عن النقد الأدبي العربي فهو الآخر قد تأثر بمبادئ اللسانيات التي « وردت إلينا نتيجة الانفتاح المعرفي الذي عرفه العالم العربي منذ منتصف القرن التاسع عشر»[3]، وإذا تحدثنا عن موضوع الأزمة فهذا لا يقصد به انعدام البحث اللساني في الثقافة النقدية العربية وإنما محدوديته والمقصود منه هو« إشعاع الفكر اللساني في وطننا العربي» [4]، كما أن دخول اللسانيات إلى الثقافة النقدية العربية الحديثة قد مر بظروف معينة، أشار إليها الكاتب "مصطفى غلفان" في مؤلفه "اللسانيات في الثقافة العربية حفريات النشأة والتكوين" وهذا في إطار التتبع

النقدي التحليلي للخطاب اللغوي العربي الحديث للوقوف على مدى تأثير اللسانيات العامة في الدرس اللساني العربي الحديث.[5] والتي نعرضها بإيجاز:

- إرسال البعثات العربية إلى الجامعات الغربية.
- القيام بدراسات جامعية وأطروحات عربية في جامعات أوروبا وأمريكا بالخصوص.
- إنشاء كراسي خاصة بعلم اللغة.
- ظهور كتابات لغوية تعرف بعلم اللغة الحديث.
- ظهور ترجمة عربية لبعض المقالات اللسانية.
- تنظيم ندوات ولقاءات علمية محلية وجهوية ودولية في مجال اللسانيات.
- إنشاء تخصصات قائمة الذات في اللسانيات العامة بكليات الآداب بالجامعات العربية.

إلا أن مجال النقد الأدبي وخاصة مجال اللسانيات في الثقافة العربية بقي محفوفا بالخوف ربما لأنه ظهر ونشأ في بيئة غير عربية، وبالتالي فهو مجال غريب لا يمكن ولوجه إلا من أصحاب الاختصاص، « فعلم اللسانيات لم يحظ بعد بالأهمية التي حظي بها في الغرب، إذ على الرغم من نصف قرن، على معرفته والعلم به والبحث فيه وتدريسه في الجامعات العربية، ما زال علما غريبا على جمهور المثقفين في الوطن العربي، ناهيك بجمع غفير من القائمين على تعليم اللغة العربية في المدارس والمعاهد، وتلك - لا شك - آفة من آفات انفصال الجامعات العربية عن مجتمعها.»[6]

هذا وقد أرجع "عبد السلام المسدي" أن العائق الأول أمام نهضة الإشعاع اللساني في الوطن العربي وتأخره في الظهور هو «اكتمال علوم اللغة عند العرب»، حيث يقول بأننا نستجمع إرثا لغويا غزيرا وهو مكتمل جمعا وتمحيصا، ولهذا فإن العربي - يقول المسدي - يقدّس لغته ويستطيع الاستغناء عما سواها.

إن ظهور اللسانيات في الثقافة العربية قد عرف جدلا واسعا بين الباحثين في هذا المجال، فتنوعت بذلك آراؤهم في تقبّل هذا المولود الجديد، ومن أسباب فشل البحث اللساني في النقد العربي وإخفاق تجربة التحديث في الثقافة العربية عموما، نذكر[7]:

ـ الانشداد إلى التراث اللغوي العربي من جهة، حيث يُعقِب "عبد القادر الفاسي الفهري" حول هذا الموضوع بأن «استعمالهم لمعطيات القدماء جعلهم في كثير من الأحيان سجناء مناهج القدماء، نظرا لما هناك من العلاقة بين الأصول التي وضعوها وبين المواد التي وصفتها هذه الأصول، مع أنه لا ضرورة منهجية ولا منطقية تفرض الرّجوع إلى فكر الماضي وتصنيفاته ومفاهيمه لمعالجة مادة معينة»[8]، بالإضافة إلى طبيعة الاتجاه التاريخي المقارن الذي يرتكز أساسا على المقارنة بين اللغات، وهذا ما يرفضه الباحثون العرب.

كما أن اعتقاد الباحثين بأن اللسانيات ما هي إلا حقلا من حقول الصوتيات جعلهم يرون فيها ترفا فكريا «وقد كان من أدق ما ضبطه العرب في علومهم اللّغوية، ولما كان الوجه التشريحي من علم الأصوات ثابتا قارا، لا يتغير من لغة إلى أخرى إلا في ضبط خصوصيات سلم الإنجاز حسب حلقاته المشحونة أو الشاغرة فإن الرأي الما قبلي قد تدعم لدى العربي إجمالا وتخمينا بما يوحي له بالكفاف والغناء عن اللسانيات.»[9].

إن الباحثين العرب لم يهتموا إلا قليلا بموضوع اللسانيات والبحث اللساني، وهذا لتمسكهم بتراثهم اللغوي العربي خاصة وأن علم اللسانيات علم أجنبي، حيث إن «بعض المتخصصين في علم العربية، والمهتمين بأمر هذه اللغة في بعض المجامع اللغوية، ما زالوا ينظرون إلى هذا العلم نظرة الشك والارتياب، لأنه علم أجنبي لم ينبت في أرضنا، أو هو لون من التغريب، إذا ما طبق على لغتنا، يحاول هدمها والقضاء عليها، بنظريات ومناهج لا تصلح لها، وإنما كانت تصلح مثل هذه النظريات لغير العربية من اللغات الإنسانية الأخرى.»[10].

حتى أن البحث اللساني قد تم رفضه بدواعي أنه علم جديد وأنه مجرد ترف فكري لا حاجة لنا به «فأغلبهم يرفض النظر في هذا العلم الجديد أو لا يحاول تفهمه، أو يعجب أن في يده من علم قد يحل محله علم حادث وافد في البلاد العربية»[11].

2ـ خصوصيات التلقي:

أشرنا إلى أن أزمة اللّسانيات في النقد العربي تتعدد، حيث ارتبط هذا الموضوع بخصوصيات التلقي التي تميزت بـ:

أ ـ ادّعاء المعرفة العلمية باللّسانيات، «من أزمات البحث اللّساني العربي "ادّعاء العلمية أو المنهجية، وهذه الظاهرة تأخذ أشكالا متعددة من تصور خاطئ

للعلم إلى تصور خاطئ للفرضيات العلمية إلى تصور خاطئ لما يعتبر تطبيقا ما».[12] حيث تعتبر هذه التصورات الخاطئة سببا في عدم إدراك البحث اللّساني، وبالتالي لا بدّ من التّقيد بمنطلقات اللّسانيات وأدبياتها.

ب ـ عدم إدراك للفوارق الموجودة بين البحث اللغوي القديم واللسانيات الحديثة، ومن مظاهر الاختلاف نجد:

1• اللسانيات فكر أكثر شمولية من نظيره القديم، فهي لم تنفصل عنه ولكنها احتوته ثم عملت على تطويره وتدقيقه.

2• اللسانيات مراجعة دائمة ومستمرة للمفاهيم الجوهرية التي تقوم عليها.

3• اللسانيات أكثر تفتحا على معارف أخرى كالمنطق والرياضيات وعلم النفس ...ولهذا السبب استطاعت اللسانيات أن تفرض نفسها في إطار العلوم الإنسانية والاجتماعية كنظرية ومنهج.

4• للسانيات متطلبات نظرية ومنهجية متعلقة أساسا بتحديد الموضوع وضبط المفاهيم والأدوات الإجرائية وتكوين مصطلحية خاصة بها.

جـ ـ عدم تشجيع الثقافة العربية على اقتحام مجال اللسانيات الحديثة.

ومن بين أزمات اللسانيات في النقد الأدبي العربي هي عدم احترام أدبيات البحث اللساني «لا تتقيد العديد من الكتابات اللسانية العربية بالضوابط المنهجية في البحث العلمي ولا تساير مستجداته في مستوى أسسه الإبستمولوجية والتحولات المعرفية»[13].

د ـ من أزمات التلقي هو اعتماد الثقافة النقدية العربية على الترجمة من الدّراسات الغربية وعلى الأخذ والاقتباس دون إيجاد جديد أو تطوير لما هو موجود وهذا يؤدي إلى الالتباس «تظل علاقتنا بخطاب اللسانيات علاقة توتر، لأنها قائمة على الضرب من الالتباس والغموض اللذين يضمران قصورا منهجيا جسيما»[14].

كما لا نغفل أن من أهم أزمات اللسانيات العربية هو عدم إدراك مبادئ اللسانيات ومنطلقاتها و«قلة التنظير للممارسة العلمية وعدم وعي الباحث بالمسلمات التي ينطلق منها وعدم تفكيره فيما يقتضيه التسليم بها من مستلزمات ونتائج فرعية»، وهو الذي يؤدي إلى وجود أخطاء منهجية تخل بالبحث اللساني عموما.

هذا وقد أشار الباحث "حافظ إسماعيلي علوي" في كتابه "اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة" إلى التمييز بين نوعين اثنين من العوائق في البحث اللساني في الثقافة العربية الحديثة:

1- العوائق الموضوعية، عوائق التلقي ذات أبعاد نفسية حضارية، والتي تمثلت في:

أ• صورة الغرب في المتخيل العربي: حيث أشار إلى أن هذا النوع من العوائق يرجع بسبب مباشر إلى الصورة التي ترسخت في متخيل المتلقي العربي عن الغرب، بأنه مستعمر ظالم وهذا كفيل برفض كل ما هو غربي رفضا مطلقا، كما اعتبرت اللسانيات على حد قول "علوي" بأنها شكل من أشكال الإمبريالية العالمية.

فهذه واحدة من المشكلات التي أرقت البحث اللغوي في ثقافتنا، وحالت دون أخذه لموقعه الصحيح، ضف إلى ذلك أن اللسانيات قد رفضت في البحث اللغوي العربي لأنها «منهج بحثي خاص بلغات أخرى ومن العسير والمتعذر أن يطبق هذا المنهج الذي وضع مناسبا للغة - أو لغات ذوات سمات خاصة - على لغة امتلكت في ذاتها قوة خلودها.»[15].

إلى جانب أن اللسانيات رمز للحداثة، حيث رُفضت اللسانيات في المتخيل العربي على اعتبار أنها معرفة غربية لا علاقة لها بالأصالة، وهذا أدى الى وجود خلاف بين الباحثين، فرأي يرى بضرورة الربط بين اللسانيات والبحث اللغوي التراثي في إطار ما يعرف بـ لسانيات التراث، ورأي قائل بضرورة الفصل بينهما، فنجد من اللسانيين من يرفض الرجوع إلى الماضي فيما يخص البحث اللغوي العربي.

ب • العوائق الذاتية، اللسانيات واللسانيون وتكريس الوضع القائم:

ويقصد بها "حافظ علوي" مختلف الأشكال المرتبطة بتلقي اللسانيات في الثقافة العربية في علاقتها باللسانيات واللسانيين وقد ميز بين نوعين من العوائق:

1 - اللسانيات وعوائق التلقي: حيث يرى بأن العوائق التي تطرحها اللسانيات العربية تتمثل في:

ـ عوائق سوسيولوجية: وتتمثل أساسا في غياب اهتمام واضح بقضايا المجتمع، حيث أن المجتمع العربي ـ يقول علوي ـ متعدد ومتنوع ثقافيا وهذا أدى إلى وجود مشكلات لغوية مختلفة وظلت اللسانيات غير مهتمة بهذه المشكلات.

وأضاف سببا آخر وهو هامشية اللسانيات في القضايا والتحديات التي تواجه الأمة، «لا تمثل الجوانب اللغوية في هذه القضايا موضوعات بحثية قارة في جدول الأبحاث اللسانية»[16].

ـ عوائق إبستمولوجية: وهي قضايا متعلقة باللسانيات في ذاتها حيث ذكر "علوي" من بين هذه العوائق هو عجز اللسانيات عن حل مشاكلها الخاصة والتي تتمثل أساسا في:

أ ـ إشكالية المصطلح اللساني: تعدّ هذه الإشكالية من أعظم المشكلات النقدية في الخطاب النقدي العربي والتي أسالت الكثير من الحبر لأهميتها، فالمصطلح اللساني «هو المصطلح الذي يتداوله اللسانيون للتعبير عن أفكار ومعاني لسانية، ويمكن أن يكون مظلة بحثية تضم تحت جناحيها أعمالا علمية تبحث في المصطلحات اللسانية»[17]. أما مصطلح إشكالية فقد ارتبط بطبيعة النقد العربي وارتبط أكثر بالمصطلح النقدي «إن في المصطلح النقدي الجديد ما فيه من الالتباس والاعتياص والتنازع والانغلاق على الفهم، وكل ما من شأنه أن يشكل " مشكلا»[18].

وتتجلى أزمة المصطلح اللساني العربي في التعدد المصطلحي، وغياب مؤسسات متخصصة بحقل المصطلح اللساني، وتتأزم الأوضاع أكثر في استخدام المصطلح التراثي لمفهوم جديد حيث إن «توظيف المصطلح القديم لنقل مفاهيم جديدة من شأنه أن يفسد علينا المفاهيم الواردة والمفاهيم المحلية على السواء».[19]

هذا وقد أشار النقاد إلى إشكالية أخرى متعلقة بالمصطلح عموما، وهي فوضى الترجمة من اللغات الأخرى مع تجاهل الخلفيات الفلسفية لهذا المصطلح المنقول «إننا نرتكب إثما لا يغتفر حين ننقل المصطلح النقدي الغربي، وهو مصطلح فلسفي بالدرجة الأولى، بكل عوالقه المعرفية إلى ثقافة مختلفة هي الثقافة العربية دون إدراك للاختلاف»[20].

ب ـ إشكالية التعريب: والتعريب مصطلح هو أقرب إلى الترجمة وله دلالات مختلفة، ولكن الأقرب في هذا المجال هو أن التعريب «صبغ الكلمة بصبغة عربية

عند نقلها بلفظها الأجنبي إلى اللغة العربية، فيكون الناتج كلمة عجمية باعتبار الأصل، عربية باعتبار الحال»[21]، وبالتالي لا بد من توحيد الجهود لإيجاد سبيل موحد في صياغة المصطلح اللساني بما يتوافق واللغة العربية بعيدا عن إدخال مصطلحات أجنبية إلى الثقافة العربية.

3 ـ اللسانيون والتلقي:

تحدث "علوي" أيضا عن أزمة التلقي في اللسانيات العربية ولكن من جانب آخر وهو جانب مرتبط باللسانيين وعلاقتهم بتلقي اللسانيات والمتمثل في:

ـ الموقف السلبي من اللسانيات: حيث اعتبر "علوي" أن اللسانيين العرب غير آبهين بالوضع المتردي للبحث اللساني.

ـ الصراع بين القائلين بالتراث والقائلين بالحداثة: أي الصراع بين الأصالة والمعاصرة، وهنا لا بد من التوفيق بينهما، يقول المسدي بخصوص هذا الشأن: « كذا نتوصل إلى إدخال مفاهيم اللسانيات مع مفاهيم التراث في جدل خصيب يخرج لنا ثمارا مفهوميّة جديدة وحصيلة معرفية متفردة، ليست صورة مشوهة للتراث ولا هي صورة منسلخة من اللسانيات، وإنما هي عطاء نوعيّ بلا قادح».[22]، وهي غاية منشودة على الصعيد الحضاري، في ظل الاحتفاظ بجذورنا التاريخية واحترام خصوصياتنا الفكرية، مع التأكيد على أن التراث العربي هو ملك أيضا للإنسانية.

ـ غياب ثقافة المجموعة العلمية: فلا بد من توحيد الجهود بين الباحثين للتغلب على هذه العوائق حيث «تضافرت عوامل موضوعية على إقناع روّاد اللسانيات بهذه الحقيقة الناصعة، وأبرز تلك العوامل جهود بعض أبناء الأمة العربية، تسلحوا بسلاح العلم الحديث بعد أن استقوه من مناهله الغربية والشرقية، وتدرعوا بوعي حضاري جعلهم يصدرون من مواقع الثقة والاتزان يلتزمون موضوعية المعرفة»[23].

ـ الكسل المعرفي: تحدث أيضا "علوي" عن فشل اللسانيين العرب في مواكبة الدرس اللساني، حيث يقول «ويُعبر بعض الكتابات اللسانية عن هذا العجز الواضح عن مسايرة مستجدات البحث اللساني، كما هو الحال في بعض المؤلفات اللسانية التمهيدية.»[24].

وتبقى هذه الخصوصيات المتعلقة بتلقي البحث اللساني في الثقافة النقدية العربية مجرد أزمات يمكن تجاوزها، ولا بد أن يكون لكل أزمة حل توافقي، حيث يرى الباحثون أن اللسانيات علم مشترك بين الإنسانية ويمكن للجميع الاستفادة منه، وليس مرتبطا بالغرب كما يروج له، كما لا يمكن بالمقابل الارتباط بالتراث فقط ، لأن هناك تلاقحا بين مختلف الحضارات مع احترام خصوصية اللغة العربية « ومن هذا المنطلق لا يصح النظر إلى اللغة العربية باعتبارها لغة متميزة عن باقي اللغات الأخرى، لأن كل اللغات متساوية »[25]، ولأن اللسانيات تدرس كل أشكال اللغة وتطوراتها، وعليه فإن البحث اللساني العربي لا بد له من التخلص من بعض القيود وعليه أن يواكب التطور الحضاري في اللسانيات بعامة.

لقد حاولنا اكتشاف وضعية البحث اللساني في الثقافة النقدية العربية من خلال تتبع ظروف نشأة اللسانيات العربية وكذا خصوصيات التلقي لهذا العلم الوافد والأزمات المرتبطة به ومدى تجاوزها.

الهوامش والإحالات:

1ـ عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، تونس، الجزائر، 1986، ص 11.

2ـ عماد الزين، حقيقة الأزمة اللسانية في العقل العربي رؤية في استراتيجيات الحل، مجلة جامعة النجاح للأبحاث، م29 ـ1ـ، 2015 ص50.

3ـ مصطفى غلفان، اللسانيات العربية أسئلة المنهج، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، ط1، 2013، ص 16.

4ـ عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، ص 12.

5ـ ينظر مصطفى غلفان اللسانيات في الثقافة العربية حفريات النشأة والتكوين، ص146 وما بعدها.

6ـ حافظ إسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2009، ص 57.

7ـ المرجع نفسه، ص46.

8ـ عبد القادر الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية نماذج تركيبية ودلالية الكتاب الأول، دار توبقال للنشر، المغرب، ط2، 1988، ص 52

9 ـ عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، ص13

10ـ حافظ اسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص50، ينظر: إبراهيم مصطفى، أصول النحو، ص 145.
11ـ حافظ اسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص 51.
12ـ مصطفى غلفان، اللسانيات العربية أسئلة المنهج، ص13، ينظر عبد القاهر الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية، ج1، ص11.
13ـ المرجع نفسه، ص 24.
14ـ المرجع نفسه، ص 24.
15ـ حافظ إسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص70.
16ـ المرجع نفسه، ص70.
17 ـ حسين نجاة، إشكالية المصطلح اللساني وأزمة الدقة المصطلحية في المعاجم العربية، مجلة مقاليد ع 10، جوان 2016، ص 196.
18ـ يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط1، لبنان، الجزائر، 2008، ص 52.
19ـ عبد القادر الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية، منشورات عويدات، ط1، 1986، ص 396.
20ـ عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2001، ص 9.
21ـ يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، ص87.
22 ـ عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، ص 175.
23 ـ المرجع نفسه، ص 174.
24 ـ حافظ إسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص 88.
25 ـ المرجع نفسه، ص 92.